صورة قلمية

ملك الخشب

نحن اليوم نعيش في عصر عملي يتطلب النشاط والدأب والعمل على انماء المادي، ويقتضي الاستقلال الصناعي والتجاري، لان حياة الامم أصبحت الآن في الاسواق، وفي ايدي القائمين بها، والتاجر الكبير في هذه الايام درجة من درجات المقياس الذي يعلو أو يهبط بحياة الامة التي هو منها، وقد يستطيع السياسي الآن ان يقلب شأناً من شؤون الحياة الأهلية في شعبه، ولكن التاجر هو الذي يستطيع وحده ان يقف في وجهه ويحول بينه وبين مآربه، وهم يقولون أن المدافع لم تستطع أن تثير الحرب الكبرى الا بعد ان سبرت غور تجارها ومناجمها واهل العمل والقوة الصناعية فيها، إذ كان هؤلاء هم جيوب الامة وهم خزائنها، وهم كل ذخارها واسلحتها، والامة التي تكثر منهم، وتزيد انفسها في عدادهم، هي الامة التي تتسلح باكبر الأسلحة في معركة الحياة

والناس اليوم يستشعرون الحرب الكبرى ويستذكرون بلاءها، لكثرة الدماء التي سفكت في ميادينها، والثروات العظيمة التي ضاعت في سبيلها، ولكن الحرب كانت قائمة قبل ان تنشب المعركة في الميدان، غير انها لم تكن حرباً يلبس لها الناس الاردية العسكرية ويحشدون لها المدافع والذخائر الحربية، وانما كانت حرباً قائمة في الحوانيت، وفرق المكاتب، وفي بيوتات التجارة والمال، وكان يتدرع اهلها فيها باسلحة أدق من المدفع، وأحذق من القنبلة، فلما سئمت الامم هذه الحرب التجارية الخفية الصامتة، انطلقت تثير حرباً ضاجة غير خافية، وكان التجار وأهل العمل والمال هم الذين يملكون إنهاءها أو إطالة عمرها.

وقد كان نابوليون يقول ساخراً من الانجليز انهم شعب من اصحاب الحوانيت، فأكبرها الانجليز منه وعدّوها مديحاً لهم، ثم لم يستطع نابوليون المزهوّ العظيم ان يغلق حانوتاً واحداً منها

ونحن شعب أولي في كل ما يتعلق بالعمل، لاننا لا نزال بعد في دور الطفولة الاجتماعية، ولا يزال يحوزنا النشاط العملي الذي نستطيع به ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بها الاجنبي في الاسواق المالية، ولدينا عملك المواهب التي تجعل التاجر الاوروبي المثل الاعلى في التجارة لاننا لا نستطيع ان نجاريهم في التجارة من ناحيتها النفسية، فالتجارة من الاعمال التي لا غناء لها عن معرفة اسرار النفوس ونزعاتها، ونواحي التأثير فيها واساليب اقناعها وارضائها. ومن هنا أصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا، وزكومتجره، لا بدّ ان يكون رجلاً ذا ارادة قوية، ومن اكبر العارفين بعلم النفس لانه لم ينهزم في السوق التجارية الممتلئة بمجاربة

اسعد باسيلي

مقتطف د٣ ر ١٩٣٢ امام صفحه ٩٠٣

تجار الغرب ودسائسه ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تحول دون النجاح

وبعد ، اليس اذا سوّدت هذه الصفحة اديت عملاً جليل الفائدة يعود بالنفع على الناس ولكن هذا النفع الذي يتأتى من عظة بليغة أو درس في الاجتماع اسوقهُ الى الناس لا يكون اعظم اثراً من مشروع الحياة يشترك فيه الناس بايديهم وعقولهم واموالهم للاستحواذ على منافذ جديدة يتسع بها نطاق التجارة الوطنية والاقتصاد وتنمو الثروة الاهلية

ان الحياة المادية ذات العواقب الملموسة لا تنتخب في الغالب رجالها من بين رجال التفكير ، لان مهمة نشر المعرفة وتفهم الآراء تخلد اربابها ولكنها مع جليل اثرها في الانسانية لا تستطيع ان تنافس في مضمار الحياة المادية ، تلك المهمة التي يؤديها للعمران اولئك الذين سخروا البحار وسيطروا على الاركان القصية في العالم لعرض التضامن الاقتصادي والمثالي . اما المثل الذي نريد ان نسوقهُ إلى الناس فقد شئنا ان نتخيره من بين رجال التجارة العصاميين الذين كانت لهم مواهبهم الفكرية والادبية ومزاياهم الشخصية مصدر إسترشاد ونجاح في حياة العمل

كان اسعد ياسيلي اول ظهوره في الحياة العملية اديباً سليم التفكير ، والأدب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل به ان يتخلى عنهُ الى حرفة اخرى ، ولعل اشتغاله بالادب كان نتيجة شعوره القوي بانهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ ان يعرب عن آرائه وان يرشد وان يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من احوال الناس واحاديثهم ، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة وانما كانت ارادته وقوة شخصيته وذكاؤه رأس نجاحه

فانت ترى أن هذا الرجل القدوة بين رجال الاعمال عندما اراد ان يضع اساس مجده المادي كان بين بذهنية رجل بحاثة قوي الميل الى الاشتغال بالدراسات الفلسفية العالية . وفي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أبان النهضة الاخيرة لهدم القديم ولبثّ الآراء والمبادئ الجديدة وعلى الاخص في مجلة «الجامعة» التي تولى إصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير فرح انطون : تقول في وسع هؤلاء ان يطلعوا على نخبة قيمة من الموضوعات الفلسفية التي كان المترجم يعلن فيها وقتئذٍ رأيهُ في « العلم والدين » وما إلى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف سبنسر ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

ونعتقد انهُ لو خيّر وقتئذٍ ان يكون ذلك البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان اقل توفيقاً . وربما كان نجاحهُ يعود على الجيل بنتائج اجلّ من نجاح الكثيرين من المعاصرين

اذاً لم يسلك اسعد ياسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كسائر المشتغلين بالتجارة . وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع إلى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الا بالحقائق الملموسة

على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وعمر من رون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وان هناك حقيقة

اساسية قام عليها بنيان الاديان » . ثم انظر اليه يقول في ختام فصل ممتع منشور في الجزء الاول من السنة الثالثة من مجلة الجامعة بعنوان « اتجاه العقل إلى ما وراء حدود العلم »

« وهنالك ملاحظة أخرى لا ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العالم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز عن ان يروي كل الارواء ظمأ العقل البشري إلى المعرفة . فهل امعنا في الاكتشاف العلمي فانه يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن أصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من هذا السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم أشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنه الاَّ أنهُ يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب ويلزم عن هذا ان يوجد على الدوام طريقان يتجهها الفكر البشري وهما العلم والدين

« اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط بالبحث عن الحوادث الوضعية وعلاقتها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اتيانه بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بد من افتراض وجوده عند النظر إلى الحوادث واعتبار علاقتها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم وحده لا يستطيع ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً إلى ما وراء حدود العلم ، فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار »

هذا نموذج لذهن المبدع الذي سلك به اسعد باسيلي سبيل العمل المادي . ولما تخلى نهائياً عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية وأقبل على تجارة الخشب احرز في الزمن القصير مركزاً وثقة واتساعاً في الاعمال لا يتوفر لغيره في الزمن الطويل . وظل يشق طريقهُ بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وتراجعت إلى الوراء جميع البيوت التجارية التي كانت تدعي احتكاره ، واستولى نهائياً على هذه التجارة كما يستولي القائد المحنك على الميدان الواسع قطعة قطعة ، وكان في ذلك موفقاً دائم النجاح فأصبح صاحب الكلمة العليا في سوق الخشب ، وربما قامت وارداته منه مقام الضعف من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بانا لا نستطيع الاشارة اليه دون ان نلقبه بملك الخشب ، ولنستطيع ان نقول ان البيئة تحدد المطامع ؛ فلو ان اسعد باسيلي كان في اميركا لأحرز بحق هذا اللقب وكانت دوائره ومكاتبه تضيق عنها ناطحات السحاب كسائر بيوت التجارة الاميركية التي تتحدث عنها الصحف إلى الجماهير في العالم فيصيب الانسان لشدة ما يعتريه من الدهشة لقراءتها ذهول كالذي يستولي على بعض من تفاجئهم الانباء الخارقة

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية ، ولكن الذين لا يكلّون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطاً مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ؛ هو الخط نفسه الذي يخلفه البطل بين السفوف دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركه في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

قلنا ان الطريق تمتد وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية ، ونضيف إلى ذلك ان

رأس النجاح الاقدام . وفي امثال الاميركيين المعاصرين ان فرصاً عن المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلم الجرأة . والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

واسعد باسيلي قد شق طريق المجد باقدامه وشجاعته وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة أو الاقتصاد . وهو يجمع إلى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ، ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل . وحياة الضمير في دائرة العمل المادي اقوى منها في سائر الاعمال الاخرى . وانت إذا تصفحت بنظرك شخصية اسعد باسيلي الكبيرة ، ولحظت ميله إلى التفكير ، وكرهه لطرق الاعلان عن نفسه وعن اعماله الكثيرة في سبيل الخير ، اقتنعت بان انوار المدينة العظيمة تبدو للساري كالسراب

وأسعد باسيلي اليوم في حدود الستين ، وقد ولد في مدينة طرابلس الشام من ابوين صالحين ، وكان لوالده مقام كبير بين التجار ومقام ممتاز في طائفته اذ كان رئيساً لجمعيتها الخيرية ، وقد ورث الابن عن والده مواهب الذكاء والنشاط والاستقامة والشرف ، والاستقامة والشرف هما العنصران اللذان لا تنهض الاخلاق الطيبة الا بهما . وهو بعد ذلك قطع الحياة عملاً وصلاحاً وبرًّا يحمل في قلبه جميع المبادىء النبيلة فهو ليس تاجراً حسب لا يحفل الا بالشؤون المالية ولا يعنى الا بمسائل التجارة ومهامها ، بل هو لا يألو جهداً في اكتساب قلوب الذين طحنتهم الحياة ، وقتلتهم مناكد العيش

وقد استطاع ان يقف من تجار الاخشاب في الطليعة ، ويشق طريقه الى الثروة ، عاملا بمبادىء النظام والترتيب والادارة الحسنة التي يشرف عليها بنفسه ، فارتفعت شهرته وطار اسمه حتى عين وكيلاً للغرفة التجارية المصرية لمدينة الاسكندرية ، فما لبث قليلاً حتى احلته الاعضاء المحل الاول فيها ، وعرضت عليه رآستها فأبى قائماً بالوكالة لاسباب لا يجهلها كثيرون من القائمين على تدبير الغرفة ، وتستمد الغرفة منه الضوء الذي يرشدها ، وتسلم اليه قيادها في كل الشؤون ، وهو فوق ذلك عضو من الاعضاء المحلفين بمحكمة الاسكندرية التجارية ، وأكبر شخصية محترمة مثقفة في الجمعية الخيرية السوريين الارثوذكس ، وهو بعد متوقد الذهن ، ثاقب الرأي ، جم الاطلاع لاتقوته من شؤون التجارة والعلم والادب بادرة ، لانه درس وطالع كثيراً فهو لذلك يعد بحق من اكبر الشخصيات البارزة في هذا البلد

وأخيراً ، ان اسعد باسيلي عصامي قبل كل شيء ، والعصاميون في هذا البلد قليل ، لان العصر لا يعين على العصامية ، ولا يساعد على انتاجها ، وانما يجتهد في مكافحتها وخذلانها ، والناس جبلوا على ان يكونوا حرباً لكل من يريد ان يسمو عليهم قوة وعملاً ، وارادة واستقلالاً . فاذا رأيت يوماً عصاميًّا بينهم ، فاعلم انهُ استطاع ان يهزم العصر بأسلحة اشد من اسلحته وعرف كيف يتخلص من ضروب الكفاح والعداء التي حشدها الجيل لمقاومته

الاسكندرية نقولا شكري